برنامج «القنطرة الواحدة على ثلاثة أبحر» في الترجمة العربية الصوتية المسجَّلة إلى لغة «نوبي» : دراسة وتقويم

د. عبد الملك ليمن

ملخص البحث

انتظم هذا البحث في برنامج عربي غير حكومي يستهدف العوام خاصة ، اخترعه الباحث منذ آخر التسعينيات من القرن الميلادي المنصرم بغية دفع عجلة تقدم اللغة العربية إلى الأمام بين قبيلة نيجيرية هامة ، ألا وهي قبيلة نوبي النيجيرية . عنوان البرنامج اللغوي العربي هو «القنطرة الواحدة على ثلاثة أبحر» . وفي مستهل البحث بيّن الباحث ماهية البرنامج وأهدافه والعوامل التي أدت إلى اختراعه في مجتمع غير عربي نيجيري . ثم استعرض الباحث المشروعات العلمية التي أنجزها البرنامج والتي كان البرنامج على سبيل إمضاءها في المستقبل القريب بمشيئة الله تعالى . والباحث في هذا البحث سلك منهجا ذا ثلاثة أبعاد ، وهي البعد التحليلي التاريخي من ناحية الأحداث الماضية والواقعية ، والبعد التقويمي لكامل المسيرة منذ النشأة إلى اليوم ثم البعد الأملي الرجائي من ناحية مستقبل البرنامج تحت إطار إمكانياته وكُموناته وتنظيمه . وأخيرا اعترف الباحث ببعض النقائص والقصور في كلا الجانبين التنظيمي والتنفيذي ، والتي يمكن تصحيحها بتوفيقه تعالى من أجل الوصول مستقبلا إلى النجاح الباهر في مجال تطوير الفهم العربي الدقيق لدى النوبيين النيجيريين .

التوطئة

نستهل هذا البحث ببيان نوعيته . فهو في الظاهر من أصعب البحوث النادرة الوقوع لأنه من باب المحاسبة الشخصية ، نظرا إلى أنه يتحدث عن برنامج اخترعه الباحث نفسه . أليس من العسير أن يسبر الباحث أغوار مشروعاته ويبينها ثم يقوِّمها تقويما مُنصفا بلا أنانية والتحيز والإجحاف ؟ ألا يكون الشخص في مثل هذا البحث كلاعب دور الممتحِن والممتحَن في حين واحد؟ وأليس من المعقول أن يرعوي الباحث عن الكتابة من أجل تَفاهة ما قدّم للعربية استحياءً ؟ ، لم تكن الأجوبة على هذه الأسئلة سهلة ، إلا أن الحق في هذا الأمر هو أنه من وجهة النظر الصحيح يكفى فخرا بالعربية وتقديرا لها أن يشار بالبَنان إلى مشروع أفاد فيها شخصا واحدا ولو ما تقدمت به إلا شبرا ، بَلْهَ هذا البرنامج الذي الباحث الآن بصدد الحديث عنه قد أفاد الآلاف والملايين ويتمنى أن تقدمت به العربية أبْواعا . وعلى هذه العقلية يمضي الباحث في الكتابة ممهِّدا بموجز تاريخ نيجيريا ومكانة العربية فيها قديما وحديثا وحُظوة قبيلة نوبي فيها والعوامل التي أدت إلى ضرورية اختراع البرنامج العربي الشخصي بغية الاستنهاض بالعربية لدى النوبيين .

إن من له أقلّ إلمام ببلاد إفريقيا يُدرك أن أول ما يتبادر إلى الأذهان بمجرد أن ذُكر نيجيريا هو كثرة السكان ، إذ هو أكثر بلاد إفريقيا سكانا ، يربو عدد مواطنيه على مائة وخمسين مليون نسمة . وله الآن قرن واحد تماما من «العمر» ، يقول العلامة الإلوري في مصدر اسم نيجيريا قائلا : «نيجيريا – معناها ما حول النيجر ، وهو اسم مستمد من نيغرو أي الزنجي الأسود ثم أطلقوه على النهر المنسوب إلى الزنج وسموه نهر نيغرو أي نيل الزنج أو نيل السودان فأخذت البلاد اسمها من ذلك .»[i]

وفي نيجيريا قبائل ولغات عديدة ، هي أكثر من أربعمائة قبيلة[ii] . وقبيلة نوبي تُعَدُّ من بين السبع الأولى في الكِبَر من هذا العدد الهائل . فهي إحدى قبائل نيجيريا الكبرى تسكن في أوساطه وهي معدودة في منطقته الشمالية ، مهمة من حيث عدد السكان والسياسة الوطنية . أغلبيتهم تقطن في ثلاث ولايات من بين الولايات الست والثلاثين . والولايات الثلاث هي نيجا

وكوغي وكوارا . وأغلبيتهم الساحقة مسلمون . عاصمة بلادهم الجديدة مدينة «بِدَا» . وقال العلامة الإلوري وهو في معرض الحديث عن العاصمة : «ولقد ضاع تاريخ الدول التي عاشت في بلاد نوبيiii قبل قيام الدولة الفودوية السلطان جبريل الذي اشتهر بالعدالة والتقوى والصلاح كما ذكره الشيخ محمد بللو في إنفاق المنسور»iv .

وإنه من الحقائق التاريخية أن الإسلام دخل شمال أفريقيا منذ القرن الأول الهجري في خلافة عمر بن الخطاب . ومن جراء التجارة التي كانت تجري بين شمال أفريقيا وغربها دخل الإسلام في منطقة كانم برنو . ومنه دخل في بلدان هوسا في عصر مبكر من الهجرة النبوية . وليس هناك أدنى شك في أن الإسلام قد دخل أمة نوبية قبل القرن الحادي عشر الهجري . وأدل دليل على ذلك اسم أميرهم آنذاك «محمد واري» ، تأمّر عليهم في القرن السابع عشر من سنة ١٦٧٠م إلى ١٦٧٩م . ويبدو أن الإسلام – قبل أن أسلم الأمير – دخل في النفويين عن طريق التجارة بينهم وبين الهوساويين والبرناويين بمدة طويلة . وكذلك كان الأمراء الذين تولوا زمام الأمر بعد «محمد واري» مسلمين أمثال «عبد ولي» والأمير علي ، والأمير إبراهيم والأمير إدريس . وهذه الحقائق التاريخية تفنّد المؤرخ «نادل» الإفرنجي فيما ذهب إليه من أن أول أمير نوبي المسلم هو الأمير جبريل الذي تولى مقاليد الحكم من سنة ١٧٤٦م إلى ١٧٥٩م v

ومن كبار العلماء النوبيين القدامى الشيخ عبد الرحمن أباجيvi الذي عاصر الشيخ عثمان بن فودي الفلاني المجدد الإسلامي في القرن التاسع عشر الميلادي في غرب أفريقيا والشيخ الحاج الوزير مَمَّنْ والشيخ دنغنغي وغيرهم ممن كان لهم قدم راسخة في العلوم الإسلامية والعربية . ولا ينبغي أن يفوتنا الحديث عن أكابر العلماء الذين اشتهروا في بلاد نوبي قبل العلماء المجاهدين الفلانيين كعبد الرحمن بن محمد الشريف الذي كان أبوه عربيا قحا وكانت أمه نوبية ، والشيخ موسى والشيخ باب ياغي الذي ذهب بالدعوة الإسلامية إلى ملك أويو اليربوي الكافر Alafin Ajiboyede في القرن السابع عشر الميلادي ، فلعبوا دورا فعالا في إدخال اليربويين في الإسلامvii . ومن هنا يثبت القول بأن النوبيين تأثروا بالهوساويين إسلاما وعلما كما أثروا في اليربويين في مجالي الإسلام والتعليم .

ماهية البرنامج وأهدافه والعوامل التي أدت إلى اختراعه

ماهية البرنامج وبيان أبعاده التاريخية : إن هذا البرنامج الدراسي وليد الصدفة . يرجع تاريخ إنشائه إلى ١٩٩٦م عندما طلب من الباحث ترجمةَ ألفية بن مالك إلى لغة نوبي أحدُ طلاب العربية في قرية ساغيفو من ولاية كوارا ، فلبّاه إلى ذلك فورا ، فابتدر إلى الترجمة الصوتية المسجلة وأتمها في شهر . ثم أعاد الترجمة مرة ثانية بعد مرور خمسة أعوام من الترجمة الأولى لما لاحظ فيها من الأخطاء البيانية والتفسيرية التي لا يمكن الإعراض عنها بحال . وكان ذلك عام ألفين وواحد . فما لبث أن أتمها حتى شعر بحاجة إلى تقريب كتاب «الحصن الرصين» إلى أفهام طلاب العربية النوبيين فعزم على الترجمة كذلك . لذلك شرع في الترجمة وأتمها خلال سنة واحدة . وكان ذلك عام ألفين واثنين . وهكذا مضى مجدًّا في عمليات الترجمة كتابا كتابا ، واحدا تلو الآخر .

وما حضرت بباله فكرة تسمية البرنامج العلمي إلا بعد أكثر من عشر سنين من ولادته وإنشائه ، وحينئذ قد ترجم مجموعة متواضعة من الكتب العربية والإسلامية إلى لغة نوبي ترجمة صوتية مسجلة . من بين تلك المجموعة ، المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث ومصباح الراوي في علوم الحديث والمبادئ الصرفية في علم التصريف وملحة الإعراب في علم النحو العربي وغيرها . وتنبه أثناء الترجمة لأمر مهم ، ألا وهو ما كان للعلوم العربية من المزايا العديدة في إدراك معاني الكتب الإسلامية ، فانكبّ على ترجمة الكتب العربية في العلوم الثلاثة (النحو والصرف والبلاغة) لتكون أساسا وآلة قيمة في دراسة العلوم الإسلامية . فجرّد – من الحين – ترجمات الكتب العربية عن الكتب الإسلامية في هذا البرنامج الترجمي . فأخذ ينظّمه تنظيما . ناويًا بأن يكون بذرة طيبة ألقاها في تربة بلاد نوبي تنبت منها دوحة عربية طيبة . فنوّه مسجِّلا أهدافه ومواصفاته والمستهدفين به من السكّان النوبيين .

أما مواصفات البرنامج فهي كالتالي :

× انتفاء علاقة الحكومة بالبرنامج لكونه غير حكومي : ليس للحكومة أي دَخْل في هذا البرنامج ، ولم تَرد لدعمه فيما يعلم أية معاونة مالية أو مادية من قبل المنظمات الداخلية والخارجية أو الأفراد ، اللهم إلا ما كان من هدية المرحوم الأخ عليّ ساقيفو المتوفى عام ألفين وواحد ، وذلك منذ بداية عملية الترجمة . أهدى إليه الشرائط التي استخدمها في الترجمة الافتتاحية .

× حرية التعامل فيه : الدارسون فيه يجرون حسب طاقاتهم العلمية وإراداتهم الشخصية . فالذي يريد أن ينخرط في سلك الدارسين ، ما عليه إلا أن يحصل على الشرائط العلمية التي يصدرها بمحتويات البرنامج الصوتية المسجَّلة ، ثم يحصل على آلة التسجيل (أي المسجِّلة) . ومن الحين يخطط لنفسه من الأوقات المناسبة من الليل أو النهار لاستماع إلى الدروس وتحسين متابعتها يوميا . وجملة القول ، ليست لهذه الدراسة مدة محددَّة لاستكمالها الطلاب . الأمر في ذلك يتوقف على همة الدارس وقوة ذاكرته . ومن تمام تعاون الباحث المترجم مع الدارسين أنه يمنحهم من أوقاته الثمينة ويُتيح لهم فرصة الاتصال به عن الهاتف سائلين عن المسائل التي لم تتضح لهم بعد أن استمعوا إلى الشرائط ، ليزيدهم بالبيان بقدر الإمكان كلما أرادوا .

× ليس فيها التخطيط التقويمي : يعلم علم اليقين أن التقويم من الأهمية بمكان ، لكن نظرا إلى صعوبة تحقيقه في هذا البرنامج الدراسي غير المنظَّم تمام التنظيم ، تغافل عنه . ومن مسببات هذه الصعوبة عدم الإحاطة بالدارسين وأحوال دراستهم ، وقد تبعثروا في المدن والقرى النوبية رجالا ونساء ، من طبقات اجتماعية مختلفة . وقد يبلغه من أخبارهم أحيانا بصورة غير منظَّمة .

× لا تُعطى الشهادة العلمية آخر البرنامج الدراسي : إنه من نافلة القول أن نقول بأن الدارس لا يُمْنَح الشهادة العلمية آخر الدراسة وطبيعتها كما بينا بتفصيل . ومن الأسف الشديد أن لم يكن هناك مكافأة مادية تحفز الدارسين على الإقبال على الدراسة .

وإذا التفينا إلى الاسم الذي سمي الباحث به هذا البرنامج أي «القنطرة الواحدة على ثلاثة أبحر». نقول بأن المراد بالقنطرة الواحدة هنا هو هذا البرنامج المخترع في خدمة اللغة العربية . شبّهه على طريق الاستعارة التصريحية بالقنطرة أي الجسر بجامع التغطية والتغشية . فكما أن القنطرة تغطّي البحر أو النهر عرضا ليمكن العبور ، فكذلك هذا البرنامج يغطّي علوم القواعد العربية من النحو والصرف والبلاغة . وأما العلوم العربية الثلاثة ففي تشبيهها بالأبحر الثلاثة استعارة تصريحية كذلك بجامع الكثرة والامتلاء . وهذا بيّن لأن العلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي فيهما هي المشابهة ، ويبدو فيهما أن مشابهة المستعار له بالمستعار منه من نوع المحسوس بالمعقول . وفي كلا الحالين صُرِّح بلفظ المشبه به وحُذف المشبه الذي هو أحد طرفي التشبيه . فثبت بها أنهما استعارتان تصريحيتان . ولا شك أن تشبيه العلوم بالبحور مشتهر لدى العرب ، ولله در الدكتور أحمد بن علي حيث قال في معرض حديثه عن التخصص : «فالعلم الواحد في دائرته الضيقة بحر زاخر فكيف بعلوم عدة؟ والحال كما قال القائل :

ما حوى العلم جميعا أحد
لا ولو مارسه ألف سنة
إنما العلم كبحر زاخر
فاتخذ من كل شيء أحسنه»[viii]

وأما الأهداف فهي هكذا :

× تحبيب العربية إلى قلوب النوبيين ، وخاصة العوام والدهماء منهم ما استطع الباحث المترجم إلى ذلك سبيلا ، ليدركوا ما للعربية من خصائص التطور والتقدم ، وأن التخلف المنسوب إلى العربية مبني على التحيز والتحامل ضدها والظلم والإجحاف في حقها .

× تقريب فهم العربية إلى أذهان النوبيين ، فالمقصود إذاً خدمة العربية واستخدام اللغة الأم (لغة نوبي) وسيلة لتطوير الفهم العربي لدى النوبيين .

× حل خلافات النوبيين الطائفية التي ترجع أساسا إلى أنه ينقص زعماء

طوائفهم الإلمام التام باللغة العربية مصدر فهم الإسلام الصحيح ، والتي من الممكن أن تؤدي في بعض الأحيان إلى مشاجرة بغيضة وخصومة عنيفة في بلدانهم .

× إبراز ما تتسم بها العربية من سمات الأسرار العلمية والفنون اللغوية . الأمر الذي ينبغي ويتمنى أن يُكسب المشتغلين بها من النوبيين نوعا من الاعتزاز المتواضع والافتخار الصادق بلغة الضاد الحبيبة المبجَّلة التي أنزل عليها القرآن الكريم .

× تزييف الرأي السائد بأن الإسلام دين بلا لغة : فإن ارتآء هذا الرأي الذي يفصل بين الإسلام ولغته العربية في عقلية الباحث المترجم من باب المحاربة البينة ضد العربية .

× التطرق إلى إيجاد السبل الإيجابية الكفيلة باستنهاض منزلة العربية لدى النوبيين نطقا وفهما وتحدثا .

× تأهيل العلماء النوبيين التقليديين الذين لم يتسلحوا بالعلوم العربية من النحو والصرف والبلاغة أصلا ، ليتمكنوا من أداء مسئولياتهم الدعوية على أتم حال وأصوب نمط . وكان قديما من دأب هذا النوع من العلماء الاستحياء من تعلّم هذه العلوم لمنزلتهم الاجتماعية ، إذ قد أصبحوا من كبار العلماء لدى العوام البوادي والقرى .

العوامل التي أدت إلى اختراعه :

الحق أن العربية كانت اللغة الرسمية أيام الخلافة العثمانية الفودية قبل ميلاد نيجيريا . ولما تولى الإفرنجون زمام الحكم بعد أن هزموا الحكام المسليمن وأوجدوا نيجيريا ، أخذوا يحاربون القرآن الكريم ولغته العربية طول مدة تمكنهم فيه . يقول في ذلك الشيخ عبد الله الإلوري : «فلا جرم أن يحارب الاستعمار التعليم العربي بالتعليم الإفرنجي بغية تحويل المسلمين عن دينهم وتسميم مناهج التعليم الإفرنجي نفسه عليهم حتى يصير المسلمون أنفسهم حربا على الإسلام وثقافته لترسخ أقدام المستعمرين في بلاد الإسلام ، ولتشييد النصرانية على أنقاض الإسلام . أوليس قد قال لورد كرومر وزير خارجية بريطانيا في برلمانهم بمطلع القرن العشرين قولته المشهورة : إن قدم الإمبراطورية الإنجليزية لن ترسخ في البلاد الإسلامية ما دام هذا القرآن بيد المسلمين .»ix نعد هذا من مؤامرة دينية قبلية ضد الإسلام ولغته العربية . وقد نجحت – إلى حد كبير – بإزاحة العربية عن ساحات نيجيرية السياسية والاقتصادية والقضائية منذ أيام الاستعمار . وأصبحت العربية منحصرة في زاوية اجتماعية ضيقة ، وما زالت جهود أعداء العربية داخل الوطن وخارجها مستمرة حتى بعد الاستعمار بغية استئصالها عن الزاوية الاجتماعية الباقية . وتاريخ نيجيريا إلى اليوم مليء بصفحات سودات من مظاهر هذه الحقيقة المرة التي تُشكّل الظروف القاسية المؤلمة الموجبة على محبي العربية من أبناء الوطن النيجيري النهوض بها كي يرجع عصرها الذهبي مرة أخرى في ساحته بأسرها . هذا هو العامل الأول في اختراع هذا البرنامج «القنطرة الواحدة على ثلاثة أبحر» .

ثانيا : لاحظ الباحث من بعد دراسة عادات النوبيين المعاصرين أنهم غالبا ما يريدون أن يُسمّوا شيوخا علماء لتقديرهم الفائق للعلوم الدينية الإسلامية بما فيها من العلوم العربية إلا أنهم بجانب هذه الإرادة الحقة يعدّون هذه العلوم من أصعب العلوم في الكون فيتقاعسون في تعلّمها غالبا . وبعضهم يرون أن الحصول على تلك العلوم من الخوارق للعادة أو من الكرامات التي يُعطى أولياء الله الأصفياء ولا سبيل لهم إلى الانخراط في سلكهم . وقد تجد من بينهم القائلين بأنها يمكن أن تكتسب هذه العلوم لكن بالعناء الشديد الذي لا مثيل له . فيرى الباحث أنه من واجبه – حيث أنه نوبي قُحٌّ- أن يجيب بما يقنع الكل ويرجعه إلى محجة الصواب . ومن ثم يتوجب عليه وعلى أمثاله تسهيلهم العربية بقدر الإمكان وتذليل صعوباتها لهم بل وتقريبها نحوهم وإجداءها لهم بدون مطالبتهم بالمعاوضة نحلةً وهديةً . هذا من ناحية .

ثالثا : ثم من ناحية أخرى ، يُشاهَد تساهل النوبيين في قراءة الكتب النوبية بالخط الإنجليزي ، وفعلا يُرى أنها تكون بخط عربي أصعب . فيكون ذلك أدعى لهم للإعراض عنها . لذا التجأ الباحث إلى ترجمة

الكتب العربية ترجمة صوتية مسجلة . وهذه الصعوبة ترجع سببها إلى طبيعة لغة نوبي حيث أنها لغة تعتمد على الألحان والنغمات ، فتتغير الألفاظ بتغير نغماتها ولو تغيرا يسيرا . وعلى سبيل المثال ، إن كلمة «عبا» في لغة نوبي تكون بمعان عديدة تبعا للتغير النغمي في التلفظ ، فتكون بمعنى : ذكر ، زوج ، نوع من العود ، موضع ، فتكون لكل من هذه المعاني نغمة الكلمة الخاصة به . حتى لا يتبادر إلى الذهن معنى آخر دون المعنى المراد إذا تلفظت بنغمته التي تخصه . وقد سجل لنا مجموعة كبيرة الشيخ أحمد بن عيسى دنغنغي النوبي في منظومته المعجمية النوبية في معرض حديثه عن جانب من جوانب هذه الظاهرة المتعلقة بالنغمات في لغة نوبي ، حيث قال :

واسم خفاش عندنا فهو عدن
فزيت للجوز لنا فهو عد
واسم البحر عندنا فهو
عد إن شئت أن تصب فخذ صوابي
واسم اللص عندنا قل غارا
واسم عقاب نسميه غرا
وغاسل الميت نسميه ××
غرو إن شئت أن تصب فخذ صوابي
واسم قصر عندنا نسمى كر
واسم فر عندنا نسميه كر
واسم قيد عندنا فهو
كر إن شئت أن تصب فخذ صوابي x

استعراض المشروعات العلمية التي أنجزها البرنامج

عدد الكتب التي أتم الباحث ترجمتها الصوتية المسجلة عشرة على وجه التفصيل : سبعة منها في النحو العربي ، واثنان في علم التصريف وواحد في علم البلاغة . ومما يُظهر أهمية هذه العلوم في برنامج علمي كهذا هو ما قاله ابن خلدون في الفصل الخامس والأربعين ، ذلك الفصل الذي عقده في علوم اللسان العربي : «أركانه أربعة : وهي اللغة والنحو والبيان والأدب . ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة ، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة ، وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين العرب وشرح مشكلاتها من لغتهم . فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة .»[xi] وطبيعة الذين كوّن الباحث لهم هذا البرنامج هي التي تعمل الحيلولة دون إدخال مادة اللغة فيه فإن الكثيرين منهم قد سبق أن قرءوا كتبا كثيرة كالبردة والهمزية والوسائل المتقبلة والعشريات وغيرها ، وإنما ينقصهم الإلمام بعلوم القواعد العربية . والذين ما تمكنوا من دراسة هذه الكتب قبل هذا البرنامج تنبّه في شأنهم منذ اللحظة الأولى بأن في كتب النحو الواضح ذخيرة من المفردات الكافية في تمارينها وأنها تزودهم بالأساليب العربية الحية تغنيهم بعض الشيء عن تلك الكتب المذكورة سابقا .

المشروعات العلمية النحوية :

يقول ابن خلدون في أهمية علم النحو من بين علوم اللسان العربي : «والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدإ من الخبر ولولاه لجهل أصل الإفادة . وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه ، فإنه تغير بالجملة ، ولم يبق له أثر . فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة ، وليست كذلك اللغة ، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق»[xii]

ترجم الباحث إلى لغة نوبي ملحة الإعراب لأبي محمد القاسم بن علي الحريري البصري ، وكتب النحو الواضح الثلاثة للمدارس الابتدائية والأجزاء الثلاثة الأخرى للثانوية ، مجموعها ستة أجزاء تأليف علي الجارم ومصطفى أمين المصريين وألفية العلامة محمد بن مالك النحوية المشهورة بألفية ابن مالك . عدد الشرائط المنتَجة في ترجمة ألفية بن مالك ثلاثون شريطا ، لكل شريط ساعة واحدة ونصف ساعة . اعتمد الباحث في الترجمة على شرح ابن عقيل والبهجة المرضية للإمام السيوطي على الألفية وأوضح المسالك لجمال الدين عبد الله بن هشام الأنصاري كما اعتمد الباحث المترجم في ترجمة ملحة الإعراب على شرحين من شروحه وهما شرح المؤلف الحريري نفسه ثم تحفة الأحباب وطرفة الأصحاب للعلامة الشيخ محمد بن محمد عمر بحرق الحضرمي .

وعلى الرغم من أنه من المثقفين المحدثين اليوم من يتجهون نحو الإهمال

عن الكتب النحوية القديمة بدعوى أنها لا تتفق مع روح العصر المتقدم وأن القواعد فيها متحجرة مندثرة ، فإن الباحث المترجم على إيمان جازم بأهميتها وفاعليتها حتى اليوم . ولم لا والحال أن القرآن الكريم بين أيدينا كما هو بالأمس على صورتها القديم ، وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة . وتأثيراتها في الحياة ما زالت ملموسة مشهودة لكل منصف بار .

وأسلوبه في هذا المشروع هو مسايرة نصوص الكتب بالترجمة مع التمثيل الذي تتضح به مع غض النظر عن كثير من التفاصيل الفلسفية التي تذهب برونق العلم النحوي ووظيفته. والحق أن العلم النحوي سهل لولا ما به من تأثرات بالظواهر الفلسفية التي يرجع سببها إلى آراء نحاة اليونان . ومن المؤلم أن جميع المحاولات القديمة والحديثة التي تستهدف تطهيره من تلك التأثرات السلبية ، لم تظفر إلى اليوم بالنتائج المقصودة . وما أحسن ما قاله البروفيسور سويد النوبي بهذا الصدد :

«النحو ظاهرة لغوية تخضع لما تخضع له اللغة من عوامل الحياة والتطور ، فالنحوي متطور أبدا لأن اللغة متطورة أبدا . والنحوي الحق هو ذلك الذي يجري وراء اللغة يتتبع مسيرتها ويفقه أساليبها ، ووظيفة النحوي هي أن يسجل لنا ملاحظاته ونتائج اختياراته في صورة أصول وقواعد تمليها عليه طبيعة هذه اللغة واستعمالات أصحابها ، وأن يصف لنا مثلا ما يطرأ على الكلمة أو الجملة في أوضاعها المختلفة . فإذا قال النحوي مثلا ، إن الفاعل مرفوع كان يستند في استنباط هذا الأصل إلى استقراء واع وملاحظة دقيقة ونظر صائب في الأساليب ، وليس له أن يفلسف في ذلك أو يبنيه على حكم من أحكام العقل ...»[xiii]

المشروعات العلمية الصرفية

ترجم الباحث إلى اللغة النوبية جزأي المبادئ الصرفية للمدارس الابتدائية لمؤلفه سعد بن عمر توري مدير مدرسة سبيل الفلاح سيقو مالي ثم الحصن الرصين في علم التصريف لعلامة السودان الشيخ عبد الله بن فودي تحقيق وشرح محمد صالح حسين . وهذا الشرح أصلا رسالة جامعية لنيل درجة الماجستير من جامعة بايرو كانو تحت إشراف المرحوم البروفيسور نائبي سويد . اعتمد الباحث كثيرا على هذا الشرح لإجادته في إظهار الفحوى من عبارات المتن المشروح بأسلوب رائع . والمتن منظومة تحتوي على ألف بيت واثنين وعشرين بيتا . ومما حمل الباحث على إدخاله في البرنامج العلمي الترجمي هو عقيدته بأن الكتاب طابت شجرته فأفادت ثمرته . وأدل دليل على هذا انكباب الطلاب والعلماء على دراسته وحفظه عن ظهر قلب . الأمر الذي يعينهم على النبوغ العلمي والتفوق المعرفي في ميدان القواعد العربية الصرفية .

يقول فيه المؤلف علامة السودان الأستاذ عبد الله بن فودي ، وهو يخرج العلاقة المتواشجة الإبداعية بين علمي النحو العربي وعلم التصريف بصدد الحديث عن لسان العرب :

«فأصله اللغات والتصريف
دوحته وفرعه الشريف
مفتاح كنزه وكيمياء
أسراره يعلمه الأدباء
أم العلوم من أبيها أرحم
النحو واجتماع ذين أقوم»[xiv]

المشروع العلمي البلاغي

قد ترجم الباحث إلى النوبية كتاب البلاغة الواضحة للمؤلفين المصريين علي الجارم ومصطفى أمين ، لاشتهاره بين طلبة العلم النيجيريين . وعلى الرغم من أسلوب الإيضاح والتيسير الذي تبناه المؤلفان في تأليف الكتاب يرى الباحث أناسا من أبناء قبيلته النوبيين يشتكون من عدم الفهم . فجعل أحدهم يلحُّ طالبا من الباحث أن يترجم لهم الكتاب . ولعل سبب هذه المشكلة راجع أساسا إلى قلة الاجتهاد العلمي والهمة القاصرة والنشاط الفارغ لدى الكثيرين – لا كلهم – من طلاب العلم النوبيين اليوم . وهذه الترجمة بمشيئة الله تعالى نفعتهم – ولا يزال ينفعهم – من غير ما وجه في فهم العلم البياني .

المشاريع العلمية المستقبلة

وإتماما للفوائد العلمية من ناحية تلكم العلوم العربية الثلاثة وتلبية للرغبات العلمية لدى الطلاب النوبيين في إدراك العلوم التي بني عليها البرنامج ، عزم الباحث على مواصلة الترجمة الصوتية المسجلة

بترجمة الشافية لابن حاجب في التصريف وألفية السيوطي البلاغية المسماة بعقود الجمان إلى اللغة النوبية كالسابقة في المستقبل القريب إن شاء الله تبارك وتعالى . ثم يكمل مسيرة عملية الترجمة بترجمة أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني . يتمنى الباحث إنجاز هذه المشروعات الترجمية قبل الشروع في عملية إعادة التنظيم للبرنامج الترجمي بأسره ليكون بموافقة المتطلبات اللغوية في العصر الراهن . جميع هذه تمثل البعد الرجائي المستقبلي لهذا البرنامج العربي الميمون .

مزيد في بيان أسلوب الباحث في الترجمة

أسلوبه الكلي في هذه المهمة هو الالتزام بالقواعد الفنية للترجمة الصحيحة ، ويتخلص في النقاط التالية × التمشي مع روح الترجمة التفسيرية (أي المعنوية) . والذي يحتّم السير على مقتضاه في الترجمة هو كونه الأسلوب السليم الوحيد الذي يحقق المراد من الترجمة . فإذا كان التعريف الاصطلاحي للترجمة هو «التعبير عن معنى كلام في لغة ، بكلام آخر من لغة أخرى ، مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده»xv ، فهي لا تتم إلا باستخدام الترجمة المعنوية . ومن ثم عكف عليها الباحث في جميع مشاريع الترجمة في هذا البرنامج .

× الإرداف بترجمة معاني بعض الألفاظ الأساسية ترجمة حرفية في الأحوال الاستثنائية ، عند الخوف من أن المستمع أو الدارس يُسيء الفهم اللغوي لبعض الألفاظ من النص المترجم إذا اكتفى بالترجمة المعنوية . فيقدّم الترجمة المعنوية أوّلاً ثم يثنّي بشرح الألفاظ الحساسة شرحا لفظيا مبنيا على الدلالة الأصلية ليتبين به الفرق الواضح بين المعنى المراد من الألفاظ حسب التركيب والمعنى اللغوي الأصلي غير المراد لمخالفته سياق الكلام وفحواه .

× والترجمة تكون عن كل شيء في الكتاب المترجَم من ألفه إلى يائه ، إذ لا يغادر المترجِم «صغيرة ولا كبيرة» إلا ترجمها وحتى جميع العبارات في التمرينات . والمبعث هو أن ذلك يجعل الدارسين على أرض صلبة من معرفة ما أريد منهم أن يقوموا بها في التمرينات أو الأسئلة .

× الرجوع إلى المتخصصين من المفسرين والشراح في ترجمة الشواهد القرآنية والأحاديث النبوية والنصوص الشعرية . أما القرآن الكريم فغالبا ما يعتمد على تفسير الحافظ ابن كثير ، كما يعتمد على شراح الكتب الستة في ترجمة الأحاديث النبوية خوفا من القول على الله أو على الرسول الحبيب بغير علم ، لما يترتب على كلا الأمرين من وعيد شديد . وقد قرن الله تبارك وتعالى القول عليه بغير علم ، قرنه تعالى بالإشراك به ، حيث قال جل شأنه : قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ الأعراف : ٣٣ . وفي الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »xvi.

× يرى الباحث المترجم أنه من الجدارة بمكان أن يراعي المصطلحات العلمية سواء كانت نحوية أو صرفية أو بيانية بلاغة كما هي في العربية بدون ترجمتها إلى اللغة النوبية . وهذا الذي التزم به الباحث في جميع مشروعات الترجمة يرجع سببه أساسا إلى أمرين . أولهما أن هذه العلوم في لغة نوبي لم تنضج بصفة كاملة تصلح بها ترجمة المصطلحات العلمية على الوجه السليم ، الأمر الذي سبب انتفاء وجود جميع المصطلحات العلمية النوبية المماثلة للمصطلحات العربية في العلوم . وثانيهما أن إبقاء تلك المصطلحات العربية في الترجمة النوبية يزيد الدارسين بها تعودا ونبوغا في العلوم العربية التي هي الغاية من الترجمة . فليست الترجمة في هذا البرنامج إلا وسيلة نحو نبوغ الدارسين ورسوخهم في هذه العلوم العربية .xvii

الاعتراف بالنقائص والقصور في كلا الجانبين التنظيمي والتنفيذي

- من القصور الخطير في التنظيم عدم استعراض المشاريع المنجزة على العلماء النوبيين المعاصرين الراسخين في العلوم العربية الثلاثة التي تقع ترجمات هذا البرنامج عليها ، ليستمعوا إليها ويبدوا فيها

ملاحظاتهم بغية تصحيح الأخطاء قبل إرسالها للعوام الدارسين .

- عدم المراقبة التامة على جريان الشرائط : فالذين يبيعون الشرائط كثيرون ولا نعرف عددهم ، ولا نظام مخطط لمعرفة الذين يشترون منهم وعددهم ، كما انتفى نظام يُجبر الدارسين على الاجتهاد والإقبال على الدراسة .
- انتفاء نظام خاص لاستفسار الدارسين عن تعاملهم مع الشرائط وبيان ما كان لديهم من اقتراحات تجاه تحسين البرنامج في المستقبل اللهم إلا أنه يوجد من بينهم الذين يُظهرون إعجابهم بالبرنامج بدون أن يُسألوا فيحبِّذونه غاية التحبيذ ، وهم قليلون جدا بحذاء الساكتين عن البيان وإبداء الآراء .
- ليس في هذا البرنامج نصيب يُذكر في مجال التعبير اللغوي الذي هو «أحد الأسس الأصلية التي تنبني عليها مناهج العلاقة بين الناس من حب وكره ، أو احترام ومهانة ، أو غير هذا من الأحوال النفسية .»[xviii] وبعبارة أدق إن هذا البرنامج قاصر من جانب تطوير المهارات اللغوية للدارسين حسب اصطلاح اللغويين . وبهذا الصدد يقول الدكتور عثمان الكنكاوي «كان ينظر إلى اللغة العربية قديما على أنها عدة فروع مستقلة أو القواعد النحوية والقراءة والتعبير بنوعيه الشفوي والتحريري والإملاء والقصة والأدب وعلوم البلاغة . أما الآن أصبح ينظر إليها على أنها مهارات أربع هي الاستماع والكلام والقراءة والكتابة . وتعليم اللغة يجب أن يتم في ضوء هذه المهارات الأربع . ويجمع التربيون واللغويون على أن المهارات اللغوية أربع هي الاستماع والكلام والقراءة والكتابة .»[xix] وبالأحرى اصطلح عليها العلماء التربويون بعناصر الاتصال اللغوي .يقول فيها مؤلف «الموجه الفني» : «وبهذا أصبح للغة أربع ميادين : هي الكلام ، والاستماع ، والكتابة ، والقراءة ، وصارت مهمة مدرس اللغة أن يتعهد الناشئين في هذه الميادين الأربعة فيقدرهم على الكلام للتعبير عما في نفوسهم ، لإفهام غيرهم ما يريدون ، وعلى الاستماع لفهم ما يلقى عليهم ، وعلى التعبير الكتابي للإفهام ، وعلى القراءة للفهم «[xx].

الاقتراحات والتوصيات

× اختراع إجراءات التقويم اللائقة واستحكامها ليكون حافزا للطلاب ومرغبا لهم في الدراسة
× تحديد المدة الدراسية لتكون الدراسة منظَّمة محبَّبة غير مبعثرة مملّة .
× تخطيط المتطلبات التي إذا توفرت في الطالب يُعطى الشهادة آخر الدراسة ، ثم تجهيز الشهادات وإعطاؤها الطلاب حسب التخطيطات المقررة .
× إشراك أناس وخاصة من طلاب الباحث الأكفاء الأمناء كالذين تخرجوا منهم من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، إشراكهم في التنظيم والتنفيذ والإدارة كي يكون البرنامج مشروعا علميا جماعيا ، وهذا أدعى للنجاح الباهر بمشيئة الله تعالى في خاتمة المطاف لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «يد الله مع الجماعة»[xxi] .
× إدخال المشاريع العلمية المنجَزة في إنترنيت تمكينا لمن يرغب فيها أن ينزلها ويستفيد منها بالسهولة حيثما كان على وجه المعمورة .
× إعادة تشكيل البرنامج بحيث ينطوي على تطوير مهارات الدارسين اللغوية الأربع التي هي مهارات الاستماع والكلام والقراءة والكتابة .

الخاتمة

هذا ، وقد أتى البحث إلى النهاية بعد استعراض البرنامج اللغوي «القنطرة الواحد على ثلاثة أبحر» بأبعاده التاريخية والواقعية ثم التأمُّلية المستقبلية ، وما يتعلق به من الأهداف والإنجازات والمشاكل ومظاهر القصور في البرنامج من حيث التخطيط والتنفيذ . فتلك البيانات التي تقيم القراء الأعزاء على أرض صلبة من المعرفة بالحقائق العلمية التي تحيط بهذا البرنامج اللغوي العربي فيسعهم تقويمه تقويما عادلا حسب المبدإ الأصولي «الحكم على شيء فرع عن تصوره» . والمهم أن انطباعاتهم الشخصية حول البرنامج من حيث التحسين أو التقبيح مفيدة للباحث وبحثه ، لأن المتوقع المرجو أن تكون الانطباعات مبنية على أسس علمية بناءة . وأكبر الظن أن الباحث –مهما يكن من شيء – قد لعب دوره الإيجابي في دفع عجلة تقدّم قبيلته النوبية إلى

الأمام دينا وعلما بوجه عام ، كما أنه على وجه خاص قد ساهم ولن يزال يساهم بمشيئة الله تعالى بكل ما يملك من القوى المادية والروحية لتكون كلمة العربية هي العليا في دنيا اللغات على وجه المعمورة . مسئولية إسلامية خُلقية يتحملها . فله أن يقول بحق الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

الهوامش والمراجع

i آدم عبد الله الإلوري ، «موجز تاريخ نيجيريا» ، دار مكتبة الحياة بيروت ، ١٩٦٥م صفحة ٢١

ii Stock، Robert. "Nigeria." ٢٠٠٩ Microsoft Encarta DVD Redmond، WA; Microsoft Corporation، ٢٠٠٨.

iii مراده بنوفي هونوبي ، فصوت «P» الذي في « Nupe» غير موجود في العربية ، فبينما يذهب بعض العلماء إلى كتابته بالباء – وهو الأصح لدى النوبيين أنفسهم – يذهب الآخرون إلى كتابته بالفاء كما فعل الشيخ هنا .

iv آدم عبد الله الإلوري ، «موجز تاريخ نيجيريا» ، دار مكتبة الحياة بيروت ، ١٩٦٥م ص ٦٣

v S. F. Nadel، A Black Byzantium: the Kingdom of Nupe in Nigeria، third edition، ١٩٥١، page ٤٠٦.

vi Saidu Ibrahim، The Nupe and their Neighbours from the ١٤th Century، pages ٢٣-٢٨

vii Groundwork of Nigeria History، edited by Obaro Ikire، published for Historical society of Nigeria by Heinemann Educational Books (Nigeria) Plc، First Edition، ١٩٩٩، page ٢١٩

viii د. أحمد بن علي القرني ، الإبداع العلمي ، (١ / ٣٦)

ix آدم عبد الله اللإلوري ، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨م – ١٣٩٨هـ ، ص ١٤٩-١٥٠

x مقالة كتبها يحيى بن محمد ، في السجل العلمي للمؤتمر الوطني الثاني للمنظومة النوبية للثقافة الإسلامية العربية ، ص ١٢ ، نقلا من «السميطة العجمية» للشيخ أحمد بن عيسى دنغنغي .

xi عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة بن خلدون ، تحقيق الدكتور يحيى مراد ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م ، (ص ٧٣٦)

xii المصدر السابق ، (ص ٧٣٦)

xiii البروفيسور علي نائبي سويد ، «صور من أسباب مشاكل النحو العربي : دراسة وتوجيه» ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م ، دار الأمة كانو نيجيريا ، صفحة ٢٠

xiv عبد الله بن فودي ، الحصن الرصين في علم التصريف ، (ص ٦)

xv د. محمد بن عبد العزيز بن محمد العقيل ، أحكام الترجمة ، ص ٩

xvi أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، الجامع الصحيح ، (١ / ٧)

xvii ومما هو جدير بالتسجيل في هذه المناسبة أن ما كتبه طاهر وايت حول قضية ترجمة المصطلحات يستحق التقدير والتحبيذ . راجع كتابه «شروط الترجمة التتبعية للسنة النبوية» ص ٨-٩ .

xviii أبو بكر علي عبد العليم ، التعبير اللغوي ، مفرداته وتراكيبه ، ص ٩

xix د. عثمان إدريس الكنكاوي ، المهارات اللغوية لطلاب اللغة العربية ،الطبعة الأولى ، ٢٠١٢م ، ص ٥٣

xx عبد العليم إبراهيم ، الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية ، الطبعة الرابعة عشرة ، دار المعارف – القاهرة ، ص ٤٨

xxi محمد ناصر الدين الألباني ، صحيح وضعيف سنن الترمذي ، برنامج منظومة التحقيقات الحديثية – المجاني – من لإنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية ، (٥ / ١٦٦)